الإستفهام في شعر السيد جعفر الحلي

الأستاذ المساعد الدكتور
فالح حمد أحمد

المدرس المساعد
آمنه أحمد عباس

المقدمة :

يُعدّ الاستفهام أحد أهم الأساليب التي اعتمد عليها الشاعر في شعره وشكل نسبة كبيرة فيه. وتبرز جمالية الأسلوب الاستفهامي في النص الادبي عامة والنص الشعري خاصة بخروجه عن معناه الحقيقي المُراد به طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً إلى دلالات أخرى تُفهَم من السياق، فيكون حينها قد تعدى دلالته الحقيقية لأغراض بلاغية يسميها البلاغيون الأغراض المجازية. والفرق بين الاستفهام الحقيقي والمجازي هو أنّ الأول يُفهَم من المفردات اللغوية بشكل مباشر ويتطلب استجابة مباشرة، إمّا المجازي ففيه يكون المتكلم على علم بما يستفهم عنه فلا يحتاج إلى استجابة مباشرة.

المطلب الأول : تعريف الاستفهام وأنواعه :

يعدّ الاستفهام أسلوباً طلبياً وواحد من موضوعات علم المعاني، ويراد به ((طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل))[١]. وعدّ البعض الاستخبار هو الاستفهام ومنهم من فرق بينهما فـ ((الاستخبار، هو طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام، أي طلب الفهم؛ ومنهم من فرّق بينهما بأن الاستخبار ما سيق أولاً ولم يُفهَم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانية كان استفهاماً))[٢]، وحكاه ابن فارس في الصاحبي. والمستعمل في الدراسة البلاغية مصطلح (الاستفهام). ويعرف العلوي

الاستفهام على أنّه ((طلب المراد من الغير على جهة الاستعلاء))[٣] ويُعرف الاستفهام على أنّه ((طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً))[٤].وللاستفهام أدوات وهي (الهمزة، وهل، وما، ومن، ومتى، وأين، وكيف، وأيان، وأنى، وكم...). والاستفهام نوعان، تصديقي أو تصوري، فالتصديقي يُراد به ((طلب تعيين الثبوت أو الانتفاء في مقام التردد))[٥].ففي قولك (أ ضربت زيداً؟) ستُجيب بنعم أو لا، وهنا قد عنيت احد الأمرين إمّا إثبات الضرب أو نفيه لذا فهو ((إدراك النسبة أيّ تعيينها))[٦]. إمّا التصوري فهو ((إدراك المفرد أي تعيينه))[٧]، ففي قولك (أ محمد ناجح أم زيد؟) فيكون الجواب بتعيين أيهما الناجح، فالمتكلم عالم بالنجاح، ولكنه متردد في معرفته للناجح فيكون الجواب بتعيينه.وبما أنّ في الاستفهام طلب يُراد الإجابة عنه بشكل محدد، ففي الاستفهام التصوري يتعين أحد الأمرين المُستفهَم عنهما ويترك الآخر، وفي الاستفهام التصديقي يعين إثبات أو نفي ما تم الاستفهام عنه. وتستعمل الهمزة للتصديق والتصور، وتستعمل (هل) للتصديق فقط، وأسماء الاستفهام فلا تستعمل إلاّ للتصور.والاستفهام على حقيقته أن يُراد به طلب العلم بالشيء ومعرفة المجهول، فقد يأتي الاستفهام على حقيقته وذلك ((حين يكون السائل جاهلاً مضمون الجواب))[٨]، وعند خروجه عن ذلك الغرض فهو يُعدّ مجازاً.وبتتبع شعر الشاعر وجدنا أن الاستفهام في شعره خرج لأغراض مجازية فُهِمت بحسب السياق الذي وردت فيه والفرق بين الاستفهام الحقيقي والاستفهام المجازي هو أن الحقيقي يُفهم من المفردات اللغوية بشكل مباشر ويتطلب استجابة مباشرة، في حين المجازي يُفهم من السياق ولا يتطلب استجابة مباشرة.والفرق بينهما من جهة المتكلم هو أنّ ما يستفهم عنه المتكلم مجهول لديه ويريد معرفته في الاستفهام الحقيقي، إمّا الاستفهام المجازي فيكون المتكلم على علم بما يستفهم عنه وبهذا سيخرج استفهامه إلى معنى مجازي يُفهَم من السياق فلا يكون بحاجة إلى استجابة مباشرة وعليه يكون المعنى المجازي للاستفهام ((هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه به ليخرج كلامه خرج المدح أو الذم أو ليدلّ على شدّة

التدّلـه فـي الحـب، ولقصـد التعجـب، أو التقريـر، أو التـوبيخ))[٩]. أيّ أنّ المـتكلم يعرف حقيقة ما يسأل عنه لكنه يتجاهل فيه وبقصد من وراء ذلك التجاهل غرضاً بلاغياً قد يكون للتقرير أو للتوبيخ أو للإنكار.وهنا يُطرح سؤال وهو لماذا ذلك التحول في معنى الاستفهام؟، والذي يبدو أنّ سبب التحولات من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي يكمن في التوسع وإثراء اللغة والعمل على توصيل المعنى بشكل دقيق، وذلك بتحويل الأشياء المعنوية إلى أشياء حسّية ملموسة مشاهدة مذكورة بشواهدها التي تدل عليها بشكل مباشر ودقيق فضلاً عمّا تؤديه هذه التعابير المجازية من جوانب نفسية بما يحصل من خلالها السرور والاريحية للنفس البشرية بعامة والمتلقي بخاصة[١٠].

المطلب الثاني :الأغراض المجازية للاستفهام:

أولا:التقرير:من المعاني المجازية التي خرج إليها الاستفهام في شعر الشاعر خروجه إلى التقرير وذلك في البيت الشعري الذي يقول فيه[١١]:-

أ ليس أبوك اليومَ قام بعبئها خلافة حقّ عنكم ليس تبرح

البيت من قصيدة قالها في مدح السيد أغا ابن السيد أسد الله (قدس سره)، فالشاعر أراد أن يقول – أن أباك قام بالخلافة –، ويبدو أن ((الهمزة إذا دخلت على نفي، فأنه لا يُراد معنى النفي بل يُراد تقرير ما بعده))[١٢].وله بيت آخر من قصيدة قالها مهنئاً الأستاذ الجليل شيخ الفقهاء في عصره الحاج ميرزا حسين (طاب ثراه) في قدوم ولده الشيخ محمد تقي[١٣]:-

أ لستَ ابنُ الأولى عشقوا المعالي فكانَت في معاطفِهِم شِعارا

فكأنما الشاعر يريد أن يحمل المُخاطب على الإقرار بما بعد النفي بمعنى الإقرار بأنّه ابن الأولى واثبات ذلك.ويأتي الاستفهام دالاً على النفي وذلك في بيت شعري من قصيدة قالها في رثاء عمدة العلماء وشيخ الفقهاء في عصره الشيخ محمد حسين الكاظمي (قدس سره)[١٤]:-

وإنّي أراه في شرى العلمِ قسورا وهل تلد الآسادُ غيرَ القساور

وفي بيت آخر من قصيدة قالها في رثاء بعض الاجلاء وكان المفقود شخصين اسم احدهما حسن والآخر حسين، وقد التزم في نظمها طريق التورية ولا تستند إلى اللفظ الظاهر فانه على ما قيل المعنى في قلب الشاعر يقول في أبياتها[١٥]:-

صبراً بني المجد لا يذهب تجلدكم إنّ الفتى من تراهُ يظهر الجلدا

أ تجزعون ووعدُ الموتِ ليس بِهِ خلفٌ وهل يخلفُ الرحمنُ ما وعدا

الذي يبدو أنّ الشاعر يقصد بالقصيدة الرثائية، رثاء الحسن والحسين (عليهما السلام)، وليس أولاد المرثي الحقيقيين، بدليل أنه يقول في بعض أبياتها[١٦]:-

ابكي على الحسنينِ الدهر إنَّهُما لنا إمامان إن قاما وإن قعدا

فيتضح من السياق أنّ الشاعر يريد إثبات النفي وكأنه أراد أن يقول (لا تجزعون، والله لا يخلف وعده) ومن ثم يتوجه السؤال للمتلقي فيجيبه بإثبات ذلك بعد أن يفكر بالسؤال فيصل إلى الإقرار بالنفي وإثباته (انتم لا تجزعون لأنه حق، وأنّ الله لا يخلف وعده).ونلحظ في البيت الشعري أنّ الشاعر اعتمد على أداتي الاستفهام (الهمزة وهل) مما يعمل على توجيه الاستفهام فيه لأكثر من اتجاه فتتسع دلالته، فبدا الشاعر وكأنّه يستقصي حقيقة ويريد ان يطمئن قلبه ويُطمئن المتلقي به بعد حمله على الإقرار بها.- وله بيت اخر خرج به الاستفهام إلى معنى النفي يقول فيه[١٧]:-

أين المفرُّ من الأميرِ وعنده ابلٌ مسخرةٌ لـه وجياد

والجندُ شمَّر والرماحُ شوارع والأرضُ نجد والسيوفُ حداد

البيتان من قصيدة قالها في مدح محمد بن عبد الله وعبد العزيز أميري نجد.

فلو جئنا إلى أداة الاستفهام (أين) فالظاهر هي سؤال عن المكان، ولكنها ضمن السياق تنزاح وتتحول من السؤال عن المكان إلى نفي أمر الفرار من هكذا أمير. وتضمنت لمعنى التهديد والتخويف ومكانته وشجاعته وإشارة لاستبعاد أمر الفرار منه، ومن ثمّ حمل المُخاطب على الإقرار بالنفي وإثباته، بان يُجيب (لا مفرّ من الأمير). وتبدو جمالية الاستفهام في تلك المفاجأة التي يواجهها المتلقي مع الأداة

ما بين استعمالها الأصلي في الظاهر وما بين تحولها إلى معنى يُفهم من السياق.ومن استفهامات الشاعر التي يأتي بها متسائلاً نافياً للأمر الذي يلي الأداة في قوله من قصيدة يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام)[١٨]:-

أرادَت بنو سفيان فيهم مذلة وذلك من ابناك صعب التناول

متى ذلّ قوم أنتَ خلفت فيهم إباءً له يندقُ أنفَ المجادل

فالشاعر هنا يتسأل نافياً الذلّ عن أبناء علي (عليه السلام).

ثانيا: الاستفهام والمتلقي :وجاء الشاعر بالاستفهام لما في السؤال من إشراك للمتلقي في الأمر ويجعله يتفاعل مع الكلام. وإنّ اللا مباشرة تجعل المتلقي يبحث ويتعمق حتى يصل إلى القصد، مما يعمل على إشغال فكر المتلقي وعاطفته معاً، فيحمله على الإقرار بنفي الذلّ عنه.وقد يأتي الاستفهام دالاً على التحريض وهذا ما وجدناه في سياقات المراثي الحسينية، فتأثر الشاعر بواقعة الطف التي أغضبته مما دفعته أن يتسأل مُحرِضاً على اخذ الثأر. فيوجه سؤاله للمُخاطَب ضمن سياقات يذكر فيها أحداث واقعة الطف أو أي حدث وقع في تلك المعركة الأليمة المُفجِعة للقلوب والمُذهِلة للعقول.ويُفهَم بحسب السياق أنّ الشاعر بسؤاله وكأنّه يعمل على تحريض المُخاطَب للقيام بالثورة وأخذ الثأر، لا أن يُجيب على سؤاله، فيبدو أنه يريد الجواب وهو القيام بفعل وليس الردّ بقول. وذلك ما وجدناه في قصيدة رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) قال في بعض أبياتها[١٩]:-

– ماذا القعود وفي الطفوفِ رجالكم رضّت خيولُ أميةَ أجسامَها

– أ ومثل زينب والسيوف لها حمى تبدو فينسيها الذعور لثامها

فيبدو الشاعر مخاطباً القوم بضمير (الحاضر المُخاطَب) فيقول لهم (ماذا القعود) وهنا لا يسألهم. وإنما يعمل على تحريضهم، والذي يُبين معنى الاستفهام التحريضي، هو الحدث الذي يورده، وهو سحق الأجسام بحوافر الخيل. ثم ينتقل إلى البيت الثاني الحاوي على عامل التحريض الثاني بالاستعانة بالاستفهام وهو خروج السيدة زينب (عليها السلام) بلا خمارها وهي سيدة العِفة والوقار، والذي

أنساها خمارها ذعورها وذهولها من هول ما رأته وما حلّ بإخوتها في ذلك اليوم. وهنا الشاعر يعد ذلك وسيلة تحريض للمُخاطَب ليثور على الذي فعل ذلك بعقيلة البيت الهاشمي، مع تضمن الاستفهام استنكاره لهذا الموقف.وقد استعان الشاعر بالأداة الاستفهامية (الهمزة) في البيت الثاني لما فيها من دلالة على تنبيه المتلقي، وربما يكون موقف ظهور السيدة زينب (عليها السلام) بدون الحجاب أمام العدو وهي سيدة الوقار والعِفة وسيدة المُخدرات أكثر عظمة وأكثر تأثيراً في نفسية أي غيور من الموقف في البيت الأول – وهذا لا يعني ان رضّ الخيول لأجسام رموز الإباء الحُسينيين أمرٌ هينٌ – ولكنه مقارنة مع الموقف الثاني ربما يمكن أن يكون أهون.فالذي يبدو أنّ صعوبة الموقف في البيت الشعري الأول ربما تجعل المتلقي ينشغل به ولا يلتفت إلى صعوبة الموقف وعظمته في البيت الثاني؛ لهذا جاء الشاعر بالهمزة في البيت الثاني لينبه المتلقي ويلفت انتباهه ويشغل تفكيره بأنّ هناك ما هو أعظم من ذلك وهو خروج السيدة بلا خمارها أمام الأعداء، وبهذا يكون قد رفع من قيمة التحريض وقوته عِبْرَ الأسلوب الاستفهامي ويعكس بذلك قلقه وتألمه للموقفين مع الإيحاء لنا بان الموقف في البيت الثاني يفوق صعوبة وعظمة الموقف في البيت الأول. ويبدو أنّ في الاستفهام تضمين لمعنى التعجب – ربما – لما حلّ بالسيدة زينب (عليها السلام).وله قصيدة وهي ندبة لصاحب الامر (عجل الله فرجه الشريف) اعتمد على التحريض بكل بيت شعري فيها يقول فيها[٢٠]:-

أ تغضي فداك الخلق عن أعينٍ عبرى تودُّ بأن تحظى بطلعَتِكَ الغرا
أ تغضي واجفانُ النواصبِ قد غفت وَلم يرقَبوا مِنا واجفانَنا سهرا (كذا)

إلى أن يصل إلى آخر بيت في القصيدة يقول فيه

أ تغضي ورأسُ السبطِ يُهدى لفاسقٍ دعيٍّ وفي عودٍ له ينكتُ الثغرا
أ تغضي ولم تنهَضكَ شيمةُ سيدٍ وَمنكُم بنو سفيان أدركَت الوترا

فالقصيدة من أولها إلى أخرها حوت الاستفهام ويسرد فيها الشاعر أحداثاً وقعت في يوم الطف، وكلها مبنية على التحريض. ونلحظ أنَّ النكبة والمأساة المؤلمة التي استشعرها الشاعر من واقعة الطف أضفت على القصيدة طابع الندب لصاحب الأمر الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف)، ومن ثم حملت غرض التحريض على الثورة على هؤلاء الذين غدروا بابن بنت النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). فالتحريض كما يبدو يعكس مشاعر الحزن والإحساس بالظلم، فالشاعر يقوم بالتحريض على أمر عظيم وقع بحق أناسٍ تميزوا بالشجاعة والتقوى والعِفة والنزاهة، فتألمه لما حدث دفعه إلى التحريض بأسلوب استفهامي وليس بالأسلوب المباشر.ونلحظ أنَّ الشاعر في هذه القصيدة قد اعتمد على (الهمزة) الاستفهامية من أول القصيدة إلى أخرها، وفي ذلك دلالة على أنّ الشاعر يريد أن يستوقف المتلقي للتأمل ليكتشف عما في نفسه من الم وحزن. وليجعل المتلقي يركز على الأحداث، حدثاً تلو الآخر، وكأنّه يستعرض له كل حدث لوحده. فكلّ بيت شعري تقدّمه الاستفهام حوى حدثاً وحكى أمراً وقع في تلك المعركة بذلك اليوم. ومن ثمّ ربط الأحداث عبر تكراره للأداة ذاتها.ولكي يزيد من ترابط الأحداث والقصيدة فنياً ومعنوياً كرر الفعل (تُغضي) في بدايات الأبيات بعد الاستفهام مباشرة فبدت القصيدة بأكملها بعد الانتهاء منها وكأنها تتحدث عن شيء واحد وهو وقائع معركة الطف وأحداثها التي حدثت في كربلاء للإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته. وبدت القصيدة وكأنها جملة أو عبارة واحدة متماسكة عبرت عن معنى واحد وهو (التحريض وأخذ الثأر)، وكأنّه يريد التحريض لعدم الإغضاء عن كل ما حدث. وفي القصيدة ما يميزها أنّها موجه لمُخاطَب معروف ومعين وهو الإمام الحجة (عجل الله فرجه).

ثالثا: التحريض :وله قصيدة أخرى في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) خرج بها الاستفهام إلى معنى التحريض يقول فيها[٢١]:-

– ماذا القعودُ وحقّكم أخذتهُ أيدي الشركِ غلبَه

– أ فيقعدُ المقدامُ عن داءٍ يرى بالسيفِ طبَّه

والشاعر في هذين البيتين يعلي من صوت التحريض، فهو يريد القول: إنّ هؤلاء أخذوا حقكم فيحرضهم على عدم السكوت ويأمرهم بعدم القعود. ويعلو صوت التحريض في البيت الثاني، ويعتبر ذلك الظلم وذلك الذي حصل داء ولا طبيب له إلاّ السيف وهنا تحريض واضح لحمل السيف، وعدّه خير دواء يُعالج به ذلك الداء، فهو يعدّ هؤلاء داءً – مرضاً – ولابد من استئصاله وخير وسيلة لاستئصاله هو السيف. وفي الوقت الذي يحرض فيه يستنكر وينفي القعود عن أخذ الثأر.ويأتي الاستفهام دالاً على الاستنهاض والذي يدخل ضمن التحريض ويمكن عدهما شيئاً واحداً، وبه الشاعر يرفع همم المُخاطَب وكل من يوجه إليه الخطاب، ودافعه الحزن على قضية ما تشغل فكره وهي واقعة الطف. وجاء الاستنهاض في شعر السيد جعفر الحليّ في قصيدة قالها ندبة لصاحب الامر (عجل الله فرجه) فيستنهضه فيها ذاكراً ما جرى في وادي الطف، وهو بهذا يستنهض الهمم لأخذ الثأر والقيام بالثورة ضد الذين غدروا بالإمام الحسين (عليه السلام) يقول فيها[٢٢]:–

متى نرى بيضكَ مشحوذةً كالماءِ صافي لونها وهي نار
متى نرى خيلَكَ موسومةً بالنصرِ تعدو فتُثيرُ الغبار
متى نرى الأعلامَ منشورةً على كماةٍ لم تسعها القفار
متى نرى وجهَكَ ما بيننا كالشمسِ ضاءت بعد طولِ استتار
متى نرى غلبَ بني غالبٍ يدعون للحربِ البِدار البِدار

فالشاعر هنا يُردّ في سياق القصيدة أحداثاً وقعت في الطف ويبدو أنّه وجه الاستفهام لصاحب الامر (عجل الله فرجه الشريف) وسيلة لاستنهاض الهمم والقيام بالثورة. وبدا في الاستفهام شيئاً من شوق الانتظار لتلك الثورة، بعد أن يستنهض الهمم يُصرِح بها في البيت الأخير، ويحثهم على الإسراع بقيام الثورة، وحسب سياق القصيدة يقصد بها الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف). وتضمن الاستفهام الخارج للاستنهاض لوعة الاشتياق والانتظار.

ويأتي الشاعر بالاستفهام ويُفهم منه معنى التعظيم وذلك في ما قاله من قصيدة يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام)[٢٣]:-

الله أيّ دمٍ في كربلا سفكا لم يجرِ في الأرض حتى أوقف الفلكا

وأيّ خيلِ ضلالٍ بالطفوف عدت على حريمِ رسولِ اللهِ فانتهكا

فأراد الشاعر أن يُبين عظمة الدماء التي سفكت. ومما زاد قوة الحدث وعظمته وجود لفظ الجلالة في بداية القصيدة، فضلاً عن الصورة التي رسمها الشاعر في البيت بأنَّ تلك الدماء التي جرت تسببت بإيقاف الفلك عن حركته. فأراد الشاعر أن يُبين بأنَّ أصحاب الدماء الجارية هم ليسوا أناساً عاديين لدرجة أنَّ الفلك يتوقف عن حركته ويعمه السكون قبل جريان دمائهم الزكية. ويلحقه باستفهام أخر يعظم فيه الحدث بعد استذكار الشاعر لما جرى للنساء في المعركة والإقرار به.وبعد تعظيم الحدث وتعظيم المقتول يتحول الشاعر باستفهامه إلى استنكار الحدث، ويخرج باستفهامه الإنكاري للتوبيخ واللوم الشديد وفيه يقول[٢٤]:-

والناسُ عادت إليهِم جاهليَّتُهُم كأنَّ مَن شرَّعَ الإسلامُ قد أفكا

وقد تحكَّم بالإسلامِ طاغِيةٌ يمسي ويصبح بالفحشاءِ منهمكا

لم ادرِ أينَ رجالُ المسلمين مضوا وكيف صارَ يزيدُ بينهُم مَلِكا

وكلّ الذي قاله جاء مصحوباً بالتحسر والتفجع والحزن.وشعور الشاعر بالحزن والألم ولدّ لديه شيئاً من القلق والاضطراب فعبر عنه بأكثر من أداة. فتضمن الاستفهام أكثر من دلالة، فبدا لنا أنّ شعور الشاعر تجاه واقعة كربلاء لم يكن حزناً وألماً فقط بقدر ما هو استنكار لوقوع الحدث وتوبيخ ولوم لمن تقبلوا وقوعه.وفي موضع آخر يقول[٢٥]:-

أ تجدّ السرى وهُنَّ نساءٌ ليس يدرينَ ما السرى والبيد

رابعا : التفجع والتاسي :تأثر الشاعر بموقف النساء وحالهن بالأسر مما دفعه إلى استنكار موقف سير النساء ليلاً وتضمين توبيخ لهؤلاء الذين جعلوا النساء تسير في

الصحراء ليلاً.وقد يأتي الاستفهام الإنكاري للتكذيب وذلك في قصيدة قالها في رثاء احد الاجلاء وهو أمين أغا ابن نظام الدولة[٢٦]:-

أ تُولولُونَ بنصبِ أعواد لَهُ وَهُو المهاب إذا رقى الأعوادا

أ تُقلّبونَ على السريرِ مُقلّبا بِيَمينِهِ الأيامَ كيفَ أرادا

أ تُقيّدونَ أخا الحفاظِ وطالَما فكَّ الأسيرَ وَحللَ الأقيادا

أ تُمهّدون له الترابَ وقبل ذا لِعُلاهُ قد كان الحرير مهادا

وظهر الاستفهام هنا بشيء من التفجع والتحسر على المرثي، وكرر الأداة نفسها في الأبيات الأربعة ليطول الوقوف والتأمل فيما يريد أن يرثيه به ويتحسر عليه. فالشاعر يتحسر على ما كان عليه المفقود من مهابة، وتدبر، وكرم، ورفاهية وترف عيش، وفيها تلميح إلى صفات المفقود.وفي موضع آخر يأتي باستفهام إنكاري خارج للتكذيب يقول فيه[٢٧]:-

أ ينصبُ للهوى شبكَ احتيالٍ وَمَن يصطاد بالشبكِ الهواءا

فكأنّ الشاعر أراد أن يضع المتلقي أمام فكرتين، فكرة اصطياد الهوى بالشبك، واستبعاد اصطياد الهواء بالشبك واستحالة حصول ذلك. فحمل الاستفهام الإنكاري معنى التكذيب، لاستحالة اصطياد الهواء بالشبك.وقد يخرج الاستفهام إلى معنى التعجب، ويقع التعجب من استفهام المتكلم لأمرٍ ما، والتعجب معروف عنه انه أسلوب نحوي سماعي وقياسي وإذا جاء بأسلوب استفهامي وذلك للمبالغة في إظهار التعجب.وهنا تكمن جمالية اللغة العربية بان الشاعر يمكنه أن يعدل من أسلوب – التعجب مثلاً – إلى أسلوب آخر مع دلالة الأسلوب الثاني المعدول إليه – الاستفهام – على معنى الأول واحتفاظه بدلالته وسماته الأسلوبية من تنغيم وانفعالات، وهذا أشبه بحالة تعبير الشاعر عن التقرير والنفي بالأسلوب الاستفهامي

الخارج لمعنى لهما المتقدم ذكره.ووجدنا التعجب في الصور الاستفهامية لشعر الشاعر تظهر الحسرة والألم مما يستشعره الشاعر تجاه أمر ما حصل. وذلك في بيت من قصيدة قالها في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)[٢٨]:-

عجباً أ مثل أمية لعلاكُم تهدي المسبَّه

فقد تحول حزن الشاعر وتحسره وألمه من سبّ بني أمية لأبناء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) – وهذا ما حدث في واقعة الطف بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) وإخوته وأولاده كما ترويه الروايات – إلى حالة من التعجب لعظمة صدور المسبّة لمثل هؤلاء الرموز الذين ضحوا بأنفسهم لأجل إعلاء كلمة الدين.وقال في قصيدة رثائية أخرى بيتاً شعرياً، خرج فيه الاستفهام إلى التعجب، لشدة حزنه وتحسره على المفقود قال فيه[٢٩]:-

عجبتُ للموتِ كيفَ اسطاعَ يقرُبُهُ أ خفيةً جاءَهُ أم جاءَهُ علنا

فهو لشدة حزنه على المفقود يتعجب حتى من الموت كيف أخذه منه ولشدة تعجبه تبدو حيرته بالكيفية التي جاءه بها مبالغة في تعجبه وتنبثق ((جمالية الأسلوب من صورته النفسية المتحفزة لحدث خارج الذات أو داخلها))[٣٠].ومن الأمور التي تعجب منها الشاعر مخاطبة السيدة زينب (عليها السلام) للأعداء بعد استشهاد إخوتها ورجال بيتها، وذلك في قصيدة قالها في رثاء العلامة الشيخ محمد حسين الاصبهاني، وفي نهايتها أورد أبيات رثى فيها الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته، فآلمه موقف السيدة زينب (عليها السلام) واظهر تعجبه بشيء من التفجع والتحسر قال فيه[٣١]:-

أ ومثل زينب وهي بنتُ محمدٍ برزَت تخاطب شامتاً ملعونا

فهو يرى بأن السيدة زينب (عليها السلام) ذات قدر وشأن كونها تُعدّ بنت النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، لهذا فهو متأثر لمخاطبتها الأعداء. وسياق البيت على ما فيه من تفجع وتعجب فتضمن استخفاف واستهانة بالذي تخاطبه السيدة زينب (عليها السلام)، وعندما قال انها بنت محمد فكأنه يتعجب من هذا

الموقف، ويستهين بالذي تخاطبه.وفي البيت الشعري التفاتة جميلة وهي أنّه قال (برزت) ولم يقل (خرجت)، وفي الفعل دلالة على القوة والشموخ والشجاعة، وكأنّه وضعها بموازاة شجاعة إخوتها الرجال، فإذا هم بارزوا بالسلاح، فهي بارزت بالكلام وبدت شجاعتها بذلك.وقد يأتي الاستفهام حاملاً معنى العتاب، ومن ذلك ما قاله في قصيدة راثياً بها الإمام الحسين (عليه السلام)(٣٢):-

أ يضيعُ وتركم وتلكَ جيادُكُم   ملّت على حسنِ الثواءِ مقامَها

أ تنامُ عينُكم وتلكَ سراتُكم   جعلت اميةُ في الصعيدِ منامَها

وفي موضع آخر من قصيدة يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام) يقول(٣٣):-

للهاشميينَ الأولى لم تزل   إجابة الداعي لهم ديدنا

أ لم يصلهم نبأ الطف أم   أغضوا على ذلك القذى الاعينَا

ولا يخلو عتابه في تلك الأبيات من لوعة الحزن والتألم، فلشدة تألمه يستفهم معاتباً. وهنا الخطاب موجه من الشاعر للمُخاطَب سواء أ كان المُخاطَب الذي يقصده داخل سياق القصيدة ام خارجها أو ربما يكون الشاعر قد جرد من نفسه شخصاً فوجه له الخطاب وأخذ يعاتبه، فيتخذ من التجريد وسيلة للتعبير عما في داخله من إحساس بالحزن والألم. ولشدة تأثره بأحداث الواقعة أراد إشراك المتلقي معه في ذلك الإحساس فجاء بما يشدّ انتباهه ويوقظ ذهنه.ويأتي الاستفهام الدال على العتاب واللوم في موضع آخر. ويكون السؤال على لسان احد شخصيات القصيدة، وذلك ما جاء به الشاعر على لسان الإمام الحسين (عليه السلام) مخاطباً أخاه العباس (عليه السلام) قائلاً له(٣٤):

هذا حسامُكَ مَن يذب به العدى   ولواكَ هذا مَن بِهِ يتقدم

فعندما رأى الإمام الحسين (عليه السلام) أخاه ملقياً على الأرض مُخضّباً بدمائه أخذ يعاتبه عتاب المّتحسِر المُنكسِر والمُتألِم المُتحيِر لمن يسلم السيف واللواء من بعده.ويُفهم من الاستفهام معنى الأمر في بعض الأحيان، وذلك لأن الأسلوب

الاستفهامي يناسب المقام وموقف المتكلم أكثر من الأسلوب الأمري المباشر. وقد وجدنا ذلك التحول عند الشاعر في بيت من قصيدة قالها في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)، والبيت على لسان السيدة زينب (عليها السلام) يقول فيه[٣٥]:-

ماذا عليكُم لو مررتُم على ساداتِ فهرٍ قبل أن نظعنا

خامسا :الامر : لاستفهام يبدو من السياق انه خرج لمعنى الأمر، والشاعر عمد إلى اللا مباشرة في التعبير؛ وذلك لأنّه لو جاء الأمر مباشرة لتضمن معنى الاستعطاف والترجي ولكي يبعد الشاعر هذا الفهم جاء بالأسلوب الاستفهامي.ولا يفوتنا أنَّ الذي يعين على فهم دلالة الأسلوب هو السياق والمواقف، وبما أنّ البيت الشعري كان على لسان امرأة في حالة الاسر وتطلب ممن يحدو الضعائن أن يمرّ بهم على جثث موتاهم، فكانت هي ومَن معها في حالة تعب وشوق لزيارة قبور موتاهم. ولو طلبت من الحادي أن يمرّهم بموتاهم بالأسلوب الامري المباشر لفُهِم منه الاستعطاف والترجي، لأنّها تسير معهم أسيرة، فضعف موقفها يجعل صدور الأمر منها مباشرة يُفهَم على أنّه ترجي أو استعطاف للحادي.وبما أنّ الشاعر لم يُرِد إظهار ذلك الضعف فمال عن الأمر مباشرة إلى الاستفهام الخارج للأمر، أي تحول من المباشرة إلى اللا مباشرة في التعبير، وكأن في الاستفهام على لسانها تترك لهم الخيار بأن يمروا أو لا، من دون أن تُظهر شوقها وحنينها. ويمكن القول إنّ الأسلوب الأمري يناسب موقف القوة في الأغلب، وإذا ما قيل في هكذا موقف – أي المتكلم موقفه اضعف من المُخاطَب – يتحول فهمه إلى ضعف واستعطاف وترجي – في هذا البيت – لهذا يُعدَل عن الأمر المباشر إلى الاستفهام المتضمن معنى الأمر.ويخرج الاستفهام إلى معنى التمني، ومن ذلك ما قاله الشاعر في قصيدة يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام)[٣٦]:-

يا هل أرى ذاك الحمى يوماً وهل استاف تربه

ومتى الركائبُ تنتحي بي للّوى وتوءم شعبه

ومتى نرى عينَ الظّبا ومتى المحبُّ يرى محبه

ومتى يساعفني الزمانُ بمجلسٍ في خيرِ صحبه

وقد عدل الشاعر عن التمني مباشرة إلى الاستفهام لإظهار المتمنى بصورة الممكن وقوعه أو الحصول عليه. فالشاعر يتمنى رؤية المرثي والجلوس معه، فشوقه وحنينه له ترك في داخله حسرة تحولت إلى أمنية. وتكرار الأداة الاستفهامية على الأبيات الثلاثة الأخيرة تدفع المتلقي للتركيز على ما يدور في ذهن الشاعر.أ فلا يمكننا أن نعُدّ الاستفهام هنا وسيلة تنفيس يلجأ إليها الشاعر إذا ما مرّ بحالة الشوق والحنين فلا يُصرِح بذلك، بل يعدل منه إلى الاستفهام لجذب الانتباه واستوقاف المتلقي للتفكير والتأمل ومن ثم حمله على مشاركته له في أحاسيسه وأشواقه. فيؤثر فيه ويدفعه إلى أن يستشعر ألمه ويتشوق لأشواقه. ولو صرح الشاعر بـ (ليت) للتمني، لاختفت فقرة الاستوقاف والتأمل ولافتقد المتلقي لفقرة الاستشعار الذهني والشعوري التي اتضحت في الاستفهام. والشاعر في حقيقة الأمر أراد تلك الوقفة والتأمل لجعل المتلقي يشعر بشعوره.ومن جمالية الأسلوب الاستفهامي المجازي في الأبيات المتقدمة، أنّ الأداة الاستفهامية (متى) ظاهرها جاءت لوظيفتها الأساس، الاستفهام عن الزمن، وفي سياق هذه الأبيات تتغير دلالتها فيخرج الاستفهام من كونه استفهاماً عن الزمن – زمن اللقاء – إلى تمني حصوله أو تمني ذلك الزمن الذي مضى وانتهى.ومن الاستفهام المجازي الخارج للتمني وجاء في سياقات عاطفية في قصائد المدح الحاوية على مقدمات غزلية، ومنه بيت شعري من قصيدة قالها مهنئاً السيد الأمجد والعالم الأوحد جناب السيد الأجل السيد محمد القزويني[٣٧]:-

يا هل يعودُ لنا دهرٌ بكاظمةٍ سرعان ما مرَّ حاليه وما ذهبا

حيثُ الشبيبةُ ثوبٌ قد لهوتُ بِهِ كيفَ السلو وثوب اللهوِ قد سلبا

وهي أبيات من مقدمة القصيدة، والقصيدة قالها في تهنئة لزواج أبناء أحد الأجلاء، فمقدمتها فيها شيء من العاطفة. فيظهر أنه يتحسر على تلك الأيام ويتمنى أن تعود، وبما إنّها مرت وذهبت لا تعود، فحاول الشاعر أنَّ يقرب من عودة تلك

الأيام فجاء بالاستفهام الذي يظهر فيها تقريب المستحيل المُتمنى. وزادت الياء من تحسره ولوعته على ما يتمناه.وفي بيت آخر من قصيدة قالها في مدح العلامة السيد محمد تقي الطباطبائي مهنئاً له بعرس ولديه، وهي من بدوياته الشهيرة[٣٨]:-

هل تعودن ليالٍ قد مضت نيراتٌ جادها صوب العهاد

حيث سعدى خلتي وهي المنا والندامى شادن منهم وشادي

وهنا يتمنى عودة الأيام التي كانت مع حبيبته، ولكنها لن تعود، فالاستفهام المتضمن للتمني يطغي عليه لوعة الحزن والوله والتحسر ومشاعر الشوق والحنين، ولأنها مشاعر لشيء مستحيل الحصول وبمحاولة منه لتقريبها يأتي بالاستفهام.وقد يأتي الاستفهام ويُراد به المدح، وفي ذلك قصيدة قالها في مدح الأمير محمد بن عبد الله آل رشيد يقول فيه[٣٩]:-

لِمَ لا تذلُّ لك القبائل كلّها وتُراع منكَ مشارق ومغارب

واللهُ عونكَ والسيوفُ قواطع والجند شمَّر والخيول نجائب

وقد يأتي للمدح ويتضمن التهديد وفي ذلك يقول[٤٠]:-

من ذا يمدُّ لملك إيران يدا وبحدها أسد' العرينِ الملبد

ففي الوقت الذي يمدح الشاعر فيه الأمير بالشجاعة وإظهار قوته يُهدد في الوقت نفسه من يحاول التطاول عليه أو على أرضه.

الخاتمة :لم يلتزم الشاعر بنمط واحد في استعماله للأسلوب الاستفهامي، فمنه ما جاء في البداية، ومنه ما جاء في حشو القصيدة، ومنه ما التزم فيه بأداة واحدة في أبيات عديدة، ومنه ما تنوعت فيه الأداة.فمجيء الاستفهام في بداية القصيدة يمكن أن يُعدّ وسيلة تنبيه وإيقاظ ولفت الانتباه، إمّا مجيء الاستفهام في حشو القصيدة فيبدو أنّه وسيلة يستوقف بها الشاعر متلقيه عند الفكرة أو القضية التي نظم القصيدة من اجلها وذلك في قصائد الرثاء الحسينية – على سبيل المثال –.ففي رثائه للإمام الحسين (عليه السلام) نراه يدرج الأحداث ومن ثَمَّ يأتي بالاستفهام في حشو القصيدة حاملاً لفكرته وقضيته أو الشعور الذي يدور في خلجات نفسه، فكأنّه

يركز القضية أو الشعور في ذلك الاستفهام فيكون بمثابة مُلخص للقضية أو الشعور أو الفكرة التي يتحدث عنها في القصيدة، وكأنه يريد أن ينقل لمتلقيه فكرة التحريض أو مهمة الاستنهاض للقيام بالثورة أو التعجب من حدث معين، الذي تَحدث عنه في أبيات القصيدة على شكل أحداث ووقائع بأسلوب خبري إبلاغي، ثم ضمن تعجبه وتحريضه واستنهاضه وغيرها من أغراض المجاز بأسلوب الاستفهام.ولوحظ في شعره انه التزم بأداة واحدة في بعض القصائد، ونوّع في قصائد أخرى. وقد وجدنا ذلك في قصيدة للشاعر التزم فيها الأداة من بدايتها إلى نهايتها وجهها ندبة للإمام صاحب الأمر (عجل الله فرجه الشريف) وحوت على أحداث واقعة الطف في كربلاء، ومن حزنه وتألمه ظهر وكأنّه يندب الإمام ويعمل على تحريضه عبر ورود تلك الأحداث في أبيات القصيدة.ومما لُوحظ في هذه القصيدة أنّ الشاعر كرر الأداة على طول الأبيات، وذلك ليجعل المتلقي يركز على كلّ حدث لوحده، فكل بيت شعري تقدمه الاستفهام أشار إلى حدث مختلف عن الأخر أو أشار إلى واقعة معينة أو صفة معينة في المرثي أو الممدوح ومن ثم ربطها عبر تكرار الأداة، وليُزيد من ترابط الأحداث وترابط القصيدة فنياً ومعنوياً كرر الأفعال التالية للأداة الاستفهامية.إمّا في تنوع الأداة فالفكرة واحدة تدور في ذهنه وأن تعددت أحداثها ولكن تركيزه حول قضية معينة – وبالذات في قصائده التي يرثي بها الإمام الحسين (عليه السلام) –، فهو يركز على قضية قتل الأمام وما حلّ به وبأهل بيته من الرجال والنساء. وهذه الفكرة من شدة تألمه وتأثره بها تخلق في داخله شيء من الاضطراب والقلق والحيرة مما يدفعه إلى تنوع الأداة وسيلة للاستقصاء والكشف – وهذا ما يبدو لنا – والله اعلم.فالاستفهام أسلوب اعتمده الشاعر ليُلبي به مقاصده الذهنية وأحاسيسه النفسية. فلم تأتِ استفهامات الشاعر للحصول على إجابة محددة بقدر ما جاءت لتُعبر عن إحساس أو شعور أو شوق أو حنين أو فكرة تمخضت في ذهنه فتحول استفهامه إلى تمنٍ أو تعجب أو نفي أو تقرير. وإنّما جاء الشاعر بالأسلوب الاستفهامي مستغلاً القوة التأثيرية

التي فيه بجذب الانتباه والتنبيه مستبعداً وظيفته الأصلية في الاستعمال. فأخضعه لسياقاته تلبية لحاجاته النفسية والذهنية والشعورية جاذباً به المتلقي ذهنياً وشعورياً ونفسياً.

الهوامش

١) البلاغة والتطبيق، ص ١٣١.
٢) البرهان في علوم القرآن، ٣٢٦/٢، وينظر الصاحبي، ص ١٣٤-١٣٥.
٣) الطراز، ٢٨٦/٣.
٤) علم المعاني، ص ٩٦.
٥) المفتاح، ص ١٤٨.
٦) البلاغة والتطبيق، ص ١٣١.
٧) المصدر نفسه، ص ١٣١.
٨) علم المعاني، ص ٩٨.
٩) تحرير التحبير، ١/(١٣٥-١٣٦).
١٠) ينظر البلاغة العربية، ص ١٩٧.
١١) الديوان، ص ١٥٨.
١٢) جمالية الخبر والإنشاء، ص ١٤٤.
١٣) الديوان، ص ٢٣٢.
١٤) الديوان، ص ٢٣٦.
١٥) الديوان، ص ٢١٣.
١٦) الديوان، ص ٢١٢.
١٧) الديوان، ص ١٩٨.
١٨) الديوان، ص ٣٨٧.
١٩) الديوان، ص ٤٣٦-٤٣٧.
٢٠) الديوان، ص ٢٥٩-٢٦٠.
٢١) الديوان، ص ٨٧-٨٨.
٢٢) الديوان، ص ٢٤٤.
٢٣) الديوان، ص ٣٨٣.
٢٤) الديوان، ص ٣٨٣.
٢٥) الديوان، ص ١٧٤.
٢٦) الديوان، ص ١٧٧.

٢٧) الديوان، ص ٦٢.
٢٨) الديوان، ص ٨٨.
٢٩) الديوان، ص ٤٥٧.
٣٠) جمالية الخبر والإنشاء، ص ١٥٤.
٣١) الديوان، ص ٤٥٢.
٣٢) الديوان، ص ٤٣٦.
٣٣) الديوان، ص ٤٥٥.
٣٤) الديوان، ص ٤٣٢.
٣٥) الديوان، ص ٤٥٦.
٣٦) الديوان، ص ٨٦.
٣٧) الديوان، ص ٩٦.
٣٨) الديوان، ص ٢٠٢.
٣٩) الديوان، ص ١٠٨.
٤٠) الديوان، ص ١٨٠.

المصادر

١)البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د.ت).

١) البلاغة والتطبيق، د. احمد مطلوب، و د. كامل حسن البصير، مكتبة اللغة العربية، شارع المتنبي، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، ط ٢.

٢) البلاغة العربية (المعاني، والبيان، والبديع)، د. احمد مطلوب، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٨٨م.

٣) تحرير التجبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن ابي الاصبع المصري (٥٨٥-٦٥٤هـ)،تحقيق: د. حفني محمد شرف، القاهرة، ١٩٦٣م.

٤) جمالية الخبر والانشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

٥) ديوان السيد جعفر الحلي المسمى (سحر بابل وسجع البلابل)، تحقيق الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، مطبعة (امير-قم)، ١٤١١هـ.

٦) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسُنن العرب في كلامها، للإمام أبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا، علق عليه ووضع حواشيه (احمد حسن بسج)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٧) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة والعلوم وحقائق الاعجاز، للسيد الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، مطبعة المقتطف، ١٩١٤م.

٨) علم المعاني، د. قصي سالم علوان، دار الفكر للنشر والتوزيع، البصرة، العراق، ٢٠١٣م، ط ٣.

٩) المعاني في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ط ٣.

١٠) مفتاح العلوم، ابي يعقوب يوسف بن ابي بكر محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ)، يحتوي على علوم الصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض والقافية، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م).

الرسائل الجامعية : الخطاب في نهج البلاغة - دراسة موضوعية فنية -، ايمان عبد الحسن، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٨م.